الفصل الثاني

# أسطورة شعب الله المختار

## المرجعية النصية لأسطورة شعب الله المختار

يتيه اليهود بأنفسهم فخرًا ، ويرون أنهم أفضل البشر ، بل إن تلمودهم ينص على أن الله ما خلق بقية الخلق إلا لخدمة يهود ، فهم شعب الله المختار ، وهم الوحيدون من دون الناس من نطفة بشرية ، أما غيرهم فهم من نطفة حصان .

ودونك بعض نصوص توراة اليهود التي تنص على اختيار إلههم يهوه بني إسرائيل شعبًا منتسبًا إليه من دون سائر الأمم .

" قُلْ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّنِي أَنَا الرَّبُّ وَأَنَا أُحَرِّرُكُمْ مِنْ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ وَأُنْقِذُكُمْ مِنْ عُبُودِيَّتِهِمْ، وَأُخَلِّصُكُمْ بِذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ وَأَحْكَامٍ قَوِيَّةٍ. ٧وَأَتَّخِذُكُمْ لِي شَعْباً وَأَكُونُ لَكُمْ إِلَهاً، فَتَعْرِفُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مُحَرِّرُكُمْ مِنْ أَثْقَالِ الْمِصْرِيِّينَ. " (الخروج : ٦)

" ٦لأَنَّكَ أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. إِيَّاكَ قَدِ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَكُونَ لَهُ شَعْبًا أَخَصَّ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ " ( التثنية : ٧ )

"١٤ مُبَارَكًا تَكُونُ فَوْقَ جَمِيعِ الشُّعُوبِ " (التثنية : ١٤)

وكثيرة تلك النصوص التوراتية التي تنص على اتخاذ " يهوه " بني إسرائيل شعبًا مختارًا من دون بقية الشعوب ، لكن ما هو المبرر الذي يسوقه علماء اليهود لتبرير هذا الاختيار ؟

المبرِّر – حسب الرؤية اليهودية – هو وفاء " يهوه " لعهده مع إبراهيم "٧وَأُقِيمُ عَهْدِي الأَبَدِيَّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ جِيلاً بَعْدَ جِيلٍ، فَأَكُونُ إِلَهاً لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. ٨وَأَهَبُكَ أَنْتَ وَذُرِّيَّتَكَ مِنْ بَعْدِكَ جَمِيعَ أَرْضِ كَنْعَانَ، الَّتِي نَزَلْتَ فِيهَا غَرِيباً، مُلْكاً أَبَدِيّاً. وَأَكُونُ لَهُمْ إِلَهاً»." ( التكوين : ١٧ )

يقول حاخامات اليهود لتبرير هذا الاختيار : " يصف الكتاب المقدس إسرائيل كشعب مختار (الشعب الكنز)، الأمة الوحيدة التي تحظى بعقد مع الله عبر الميثاق . ويشار إلى هذه العلاقة الخاصة "كانتخاب" لإسرائيل التي تحمل في طياتها مسئولية كبيرة جدًا مع ما يتناسب معها من العقوبات والجزاءات " إياكم وحدكم اخترت من بين جميع قبائل الأرض لهذا أعاقبكم على جميع آثامكم". (عاموس ٣: ٢) لم تكن مكانة إسرائيل الخاصة نتيجة لقوة خاصة أو حتى نتيجة جدارة أصيلة، بل إنها من فعل المحبة الإلهية والوفاء بالعهد الذي أعطى لإبراهيم والأجداد البطاركة ويعبر سفر التثنية عن هذه النقطة بشكل واضح .

" لأنكم شعب مقدس للرب. فإياكم قد اختار الرب من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص. ولم يفضلكم الرب ويتخيركم لأنكم أكثر عدداً من سائر الشعوب. فأنتم أقل الأمم عددًا. بل من محبته وحفاظاً على القسم الذي أقسم به لآبائكم" (سفر التثنية ٧: ٦ـ ٨) (1)

ويلاحظ أن ترجمة النصوص التي يذكرها الحاخامات تختلف اختلافاً جوهريّا عن تلك الترجمة التي يذكرها المسيحيون لنفس النصوص ففي نص سفر عاموس ٣ : ٢ استبدل اليهود كلمة " اخْتَرْتُ " بكلمة " عَرَفْتُ " وهاك النص كاملاً كما يترجمه المسيحيون : " ١اسْمَعُوا هذَا الْقَوْلَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ عَلَيْكُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ، عَلَى كُلِّ الْقَبِيلَةِ الَّتِي أَصْعَدْتُهَا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ قَائِلاً: ٢«إِيَّاكُمْ فَقَطْ عَرَفْتُ مِنْ جَمِيعِ قَبَائِلِ الأَرْضِ، لِذلِكَ أُعَاقِبُكُمْ عَلَى جَمِيعِ ذُنُوبِكُمْ». ( عاموس : ٣)

أما نص سفر التثنية الذي تذكره توراة اليهود فيزيدون فيه كلمة " عددًا " على العهد القديم عند المسيحيين ، وهاك نص العهد القديم : " ٦لأَنَّكَ أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ

(1) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق .ص ٩٨ .

لِلرَّبِّ إِلهِكَ. إِيَّاكَ قَدِ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَكُونَ لَهُ شَعْبًا أَخَصَّ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، ٧لَيْسَ مِنْ كَوْنِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ، الْتَصَقَ الرَّبُّ بِكُمْ وَاخْتَارَكُمْ، لأَنَّكُمْ أَقَلُّ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ. ٨بَلْ مِنْ مَحَبَّةِ الرَّبِّ إِيَّاكُمْ، وَحِفْظِهِ الْقَسَمَ الَّذِي أَقْسَمَ لآبَائِكُمْ " ( التثنية : ٧ )

والفرق كبير بين المعنيين ففي حين أن توراة اليهود تجعل اختيار يهوه لهم بسبب صلاحهم لذا أحبهم وبر لهم بقسمه لآبائهم رغم قلة عددهم عن سائر الشعوب فإن العهد القديم لا يذكر كلمة " عدد " ليكون المعنى اختيار يهوه لليهود ليس بسبب صلاحهم إنما تفضلاً عليهم وحفظاً لقسمه لآبائهم رغم أنهم أقل صلاحاً من غيرهم يقول القديس يوحنا ذهبي الفم في شرح هذه العبارة : " لم يُختَاروا بواسطة الله من أجل أعمالهم الصالحة، فواضح أنه بالنعمة نالوا هذه الكرامة. " (1)

فمحبة الله لهم ليس لفضلهم إنما تَفَضُّلاً من يهوه عليهم لذا يفسر المسيحيون قول يهوه "بل من محبة الرب إيّاكم "بقولهم " محبته الإلهية مجانية، وكما جاء في سفر هوشع " ٤أَنَا أَشْفِي ارْتِدَادَهُمْ. أُحِبُّهُمْ فَضْلاً " (هوشع : ١٤)

إنه يحب لأنه يريد ذلك . " (2)

أرأيتم كيف يحرِّف اليهود التوراة تارة بتغيير اللفظ وتارة بإضافة لفظ لهوى في نفوسهم وإثبات ما ليس لهم بحق .

{ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [النساء: ٤٦]

إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعًا كما بينا ، لذا لعنهم الله تعالى وقسَّى قلوبهم .

{ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ } [المائدة: ١٣]

---

(1) نقلا عن موقع كنيسة الأنبا تكلا هيمانوت الحبشي القس – الإسكندرية .
(2) نفسه .

أي فبنقضهم ميثاقهم الذي أخذ عليهم بأن يعملوا بما في التوراة ويطيعوا رسولهم {لعناهم} أي أبعدناهم من دائرة الرحمة { وجعلنا قلوبهم قاسية } شديدة غليظة لا ترق لموعظة ، ولا تلين لقبول هدى { يحرفون الكلم عن مواضعه } فيقدمون ويأخرون ويحذفون بعض الكلام ويؤولن معانيه لتوافق أهواءهم . (1)

ولكن السؤال مازال قائمًا ، لماذا خصَّ " يهوه " بني إسرائيل بحبه وعهده لهم بتملك أرض كنعان دون سائر البشر ؟ ولماذا يختار " يهوه " بني إسرائيل شعبًا مختارًا ؟

ودونك رد حاخامات اليهودي عن هذا السؤال " تمثل دائمًا عبارات العهد القديم حول ماهية الله الحقيقة التاريخية للعالم القديم الذي كان بنو إسرائيل الشعب الوحيد الذي اعترف فيه بالتوحيد والوحدانية الإلهية. ولربما يعتبر بنو إسرائيل الوحيدين الذين اعترفوا بالتوحيد الإلهي الحقيقي في كل الفترة التوراتية الممتدة أكثر من ألف سنة مع احتمال استثناء قصير لإخناتون فرعون مصر.

لا يوجد شعب آخر على الأرض قد توصَّل إلى حقيقة وحدانية الله، وظل مخلصًا لتلك الحقيقة ؛ فلهذا السبب وجَّه العهد القديم رسالته تقريبًا لبني إسرائيل على الخصوص، لعدم وجود شعب آخر يستطيع فهمها والاستجابة لها بشكل فاعل .

يُنْظر إلى هذا أحيانًا كأنه يعني الخصوصية حيث ورد في العهد القديم أن الله قد عيَّن بني إسرائيل كشعبه المتميز وهذا التوجه ليس غريبًا، ولا يجب الاستغراب من هذا التوجه إذا أُخِذ تاريخ الفترة في عين الاعتبار.

وبسبب الإطار التاريخي، فإن الوثنية لا تعتبر بالضرورة خطيئة لغير بني إسرائيل لأنها تعبير لحقيقة الوجود البشري باستثناء إسرائيل . لكنْ نَذَر بنو إسرائيل أن لا يقعوا أبدًا فريسة لإغرائها . " (2)

---

( 1) أبو بكر الجزائري " أيسر التفاسير " ج ١ ص ٣٣٨ .

( 2) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ٧٦، ٧٧ .

إذن كان اختيار " يهوه " لبني إسرائيل شعبًا مختارًا – حسب الرؤية اليهودية - لأنهم أول شعب آمن بالله الواحد الأحد ، والتزم بأوامر التوراة . لكن التوراة لا تفتأ تصف بني إسرائيل بالكفر والشرك والخروج على شريعة الرب مما يؤكد أن اختيار " يهوه " لبني إسرائيل كان لجنسهم لا لإيمانهم فإيمان بني إسرائيل بالله وحده يمثل الاستثناء على مدى تاريخهم ، إنما القاعدة التي تؤكدها توراة اليهود هي كفر بني إسرائيل بالله وعبادتهم لآلهة أخرى وعصيانهم له وارتكابهم الموبقات في عينه !!

" ١١وَفَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ الشَّرَّ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ وَعَبَدُوا الْبَعْلِيمَ. ١٢وَتَرَكُوا الرَّبَّ إِلهَ آبَائِهِمِ الَّذِي أَخْرَجَهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَسَارُوا وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ، وَسَجَدُوا لَهَا وَأَغَاظُوا الرَّبَّ. ١٣تَرَكُوا الرَّبَّ وَعَبَدُوا الْبَعْلَ وَعَشْتَارُوثَ. ١٤فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ " ( القضاة : ٢ ) (1)

ولما وجد اليهود أن فكرة التوحيد كسبب للاختيار تتناقض مع نصوص التوراة التي تؤكد خروجهم الدائم عليه ، عادوا إلى فكرة العهد مرة ثانية ، ولكن فكرة اختيارهم وفاء لعهد يهوه لإبراهيم أوقعهم في مأزق آخر وهو أن التوراة أكدت أن بني إسرائيل لم يعرفوا التوحيد إلا بعد تلقي موسى التوراة ، ولم يعد التوحيد خالصًا إلا في منتصف القرن السادس قبل الميلاد وأن قبل ذلك كانت البشرية بما فيها آباء بني إسرائيل : إبراهيم ،وإسحق ، ويعقوب ، وموسى ، وداود ، وسليمان وغيرهم كانوا مشركين . فكيف يعطي الله عهدًا لمشرك بتملك الأرض المقدَّسة ، وكيف يصطفي نسله المشركين شعبًا مختارًا !!

يقول جارودي : " أضافت ترجمة مجمع الكنائس حاشية جاء فيها : " منذ زمن بعيد ، كان الاعتقاد سائدًا في إسرائيل بوجود آلهة أجانب وقوتهم " .

(1) لمعرفة رأي التوراة في اليهود راجع كتاب " حقيقة اليهود والصهيونية ، وأوهام الأمة العربية " للمؤلف . الفصل الأول : بنو إسرائيل في توراة اليهود . دار الإبداع للصحافة والنشر .

ولم يحدث إلا بعد المنفى ولاسيما لدى الأنبياء أن ثبتت الوحدانية أما ثبوت الوحدانية الخالصة لله ، أي الانتقال من صيغ مثل صيغ سفر الخروج : " لا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ " ( الخروج : ٢٠ ) إلى صيغ تكتفي بفرض الطاعة ليهوه وليس لآلهة الآخرين ، مثلما جاء في سفر التثنية .

" فالرب إلهكم تتقون ، وإياه تعبدون ، وباسمه تحلفون . لا تسيروا خلف آلهة أخرى من آلهة الأمم المحيطة بكم " ( التثنية : ٦ )

وتكرر في سفر إشعياء " ألست أنا الرب ولا إله غيري ؟ بار ومخلص وليس هناك آخر " ( إشعياء : ٤٦ )

وهذا التأكيد الذي لا يقبل الجدل بشأن الوحدانية يرجع تاريخه إلى النصف الثاني من القرن السادس ق.م (بين ٥٥٠ و ٥٣٩ ) (1)

ويؤكد جارودي هذا المعنى فيقول : " ولا مجال للرَّيب في وجود آثار للشرك العِبْراني في نُقولهم الشفوية والمكتوبة، بدءًا من القرن التاسع، وسفر يشوع (٢/٢٤) ينُصُّ صراحةً "آباؤكم.. عبدوا آلهة أخرى" وبعد أن استمع يثرون، حمو موسى، قصة النجاة من مصر ــ صاح وهو يذبح لله قائلاً: "الآن علمت أن يهوه أعظم من جميع الآلهة" (الخروج ١١/١٨)" (٢)

إذن لم يعرف بنو إسرائيل – حسب نصوص التوراة - التوحيد الخالص إلا بعد النفي أما قبل ذلك فقد كان الناس كلهم مشركين بما فيهم أنبياء الله ورسله !!

لكن كيف يتخلَّص اليهود من مأزق اختيار يهوه لهم لأنهم أول الموحدين وتوراتهم تؤكد تأخر معرفتهم للتوحيد الخالص ، كما تؤكد خروجهم الدائم عليه لذا عمد علماء

(1) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص٤٧، ٤٨ .
(2) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق . الباب الأول ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية .

اليهود إلى طريقة ذكية للتخلص من هذا المأزق فقالوا : إن " يهوه " قد اختارهم بموجب عهده لإبراهيم ، وأن هذا الاختيار اختيار أبدي لا يمكن الرجوع فيه ، ولكي يجبر " يهوه " شعبه على الإيمان به وعدم الخروج على شريعته فإنه قرر أن يعاقب كل من يعبد غيره بألوان شتى من المصائب (1) حتى يعود إلى عبادته ، يعصوه فيغضب عليهم ويعاقبهم ثم يتوب عليهم لكن العهد والاختيار ثابت لا يتحوَّل عنهم ويظل الحال هكذا دواليك طوال التاريخ حتى يعود اليهود إلى إيمانهم الكامل آخر الزمان ، وهنا يأتي خلاصهم على يد المسيح المخلِّص الذي هو من نسل داود .

هذا ليس كلامي ، ولا حتى كلام اليهود العاديين إنما هو كلام كبار علماء اليهود كما فهموه من نصوص التوراة .

" إن العلاقة بين الله والبشرية متمثلة في الميثاق بين الله وإسرائيل. وبالرغم من أن إسرائيل لا تستطيع دومًا أن تعيش كما تقتضيه الأوامر الإلهية ويقع عليها العقاب المناسب، فإن الميثاق أو العلاقة لا تنقطع أبدًا. إن فضل الله ولطفه ورحمته هي التي تشرف على الجانب الإلهي في العلاقة، بينما تطغى المحبة والإخلاص لله على الجانب الإنساني ." (2)

ويزيد علماء اليهود الأمر إيضاحًا فيقولون : " فكما أن العهد القديم يصف بني إسرائيل باختيار الله لهم بإعطائهم التوراة، فإنه أيضًا يجب على بني إسرائيل أن يكونوا إلى الأبد "الشعب الذي يختار" ويظل مخلصًا للأوامر الإلهية رغم الإغراءات الكثيرة التي تمثلها الحضارات الإنسانية المحيطة.

---

( 1) راجع عقوبات العصيان في العهد القديم ( اللاويين : ٢٦ )

( 2) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ٨٠

لكن اليهود، مثل بقية البشر، ضعفاء فيقعون فريسة الإغراء. ويصف العهد القديم الأمر الذي تسبب دائمًا في عقابهم. لم تعاقب الأمم الأخرى على ذات المخالفات . لكن بما أن التوراة نزلت على بني إسرائيل فإنهم ملزمون باتباعها بالتمام والكمال .

لكن كبقية كل البشر فإن اليهود بشر معرضون للخطيئة. فلهذا استعرض العهد القديم تاريخًا طويلاً ومتكررًا لفشل اليهود في الامتثال للأمر الإلهي. يأتي الفشل بالعقاب الإلهي الذي تتبعه توبة إسرائيل التي يجيب الله عليها بالمحبة والرحمة .لكن كون بني إسرائيل بشر، فإنهم يعصون الله مرة أخرى، وهذه فكرة رئيسة في التاريخ الديني للشعب اليهودي. ومع ذلك فإن تحقيق الغاية الإلهية لم يكن محل شك أبدًا. إن شعب إسرائيل لن يهلك (أرميا ٣١: ٢٦-٢٧). إنه سيعود إلى إيمانه الكامل، بحسب اللاهوت اليهودي، وسيأتي بالنجاة إلى كل الأرض بقيادة كل واحد إلى الله في الخلاص النهائي في آخر الساعة (إرميا ٣ :١٧- ١٨) لكن، إلى أن يحين ذلك الوقت فإن شعب إسرائيل سيظل شاهدا لله (أشعياء ٤٤: ٨) وسيستمر في العذاب عندما يعصي " (1)

الأمر أصبح الآن واضحًا إن " يهوه " قد اختار اليهود ليكونوا شعبه اختيارًا أبديًّا لا تبديل فيه ولا تحويل عنه ، فاليهود شعبه المختار أبدًا وإن كفروا به وعصوه لأنه يحبهم !! وغيرهم من الأمم الأخرى مطرودون من رحمة الله ومحرومون من حبه وإن آمنوا بالله الواحد الأحد ولم يشركوا به شيئًا !!

## رأي اليهود في أنفسهم

١- أنهم أبناء الله وأحباؤه .

{ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ } ( المائدة : ١٨ )

٢- أنهم المستحقون لدخول الجنة من دون العالمين .

---

( 1) نفسه ص ٧٦

{ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ( البقرة : ١١١)

٣- أنه لا حساب عليهم فيما يفعلونه في الأمِّيين ( غير اليهود ) .

{ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } ( آل عمران : ٧٥ )

٤- أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة :

{ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً } ( البقرة : ٨٠ )

وغير ذلك من تُرَّهَات كثيرة تدل على مدى صلف من يؤمن بهذه العقائد وتكبرهم، واحتقارهم لغيرهم ، وهذه النظرة النرجسية إلى الذات أثرت عليهم في سلوكهم مع الغير ، فهم يتعاملون مع أنفسهم وفق شريعتهم ، أو ضمن حدود أخلاقية معينة ، أما إذا كان التعامل مع غيرهم ممن يسمونهم الأمميِّين فلا مانع من ظلمهم ، والاعتداء على أموالهم ، وأعراضهم ، وهم لا يشعرون بأدنى حرج ديني أو نفسي تجاه أفعالهم تلك ، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الصفة فيهم صفة الاعتداد بالذات واحتقار الآخر، ولتأصل هذه النظرة عند من يؤمن بهذه العقائد من اليهود ، فقد ملئوا التلمود ( تفسير علماء اليهود للتوراة ) بكلمات الفخر والاستعلاء بأنفسهم ، والازدراء والاحتقار لغيرهم ، فمما جاء في التلمود :

١- " اليهود أحب إلى الله من الملائكة ، وهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه ، فمن يصفع اليهودي كمن يصفع الله . "

٢- " إذا ضرب أممي إسرائيليًّا يستحق الموت وليس العكس . "

٣- " ولو لم يخلق الله اليهود لانعدمت البركة من الأرض ، ولما خلقت الأمطار والشمس ، ولما أمكن باقي المخلوقات أن تعيش . "

٣- "الفرق بين درجة الإنسان والحيوان هو الفرق بين اليهود وبين باقي الأمميين"

٤- " إن النطفة المخلوق منها باقي الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان . "

٥-" إن الكلب أفضل من الأجنبي لأنه مصرح لليهودي في الأعياد أن يطعم الكلب وليس له أن يطعم الأجنبي أو يعطيه لحماً بل يعطيه للكلب . "

٦- " الشعب المختار فقط هو الذي يستحق فقط الحياة الأبدية وأما باقي الشعوب فمثلهم كمثل الحمير . "

٧-" إن الخارجين عن دين اليهود خنازير نجسة ، وإذا كان الأجنبي غير اليهودي - قد خلق على هيئة الإنسان فما ذلك إلا ليكون لائقاً لخدمة اليهود التي خلق لأجلهم"(1)

هذه هي آراؤهم في أنفسهم ،التي سجَّلها حاخامات اليهود في التلمود الذي يعد أشد قداسة من التوراة نفسها عندهم .

ويتساءل الأديب الصهيوني " حييم برينر " وحق على كل دارس لتاريخ اليهود أن يتساءل معه : " من أين أتى هذا الاحتقار من جانب اليهود للأغيار والشعور بالسمو عليهم ؟ هل كان اليهودي عديم الشعور حقًا وميتًا إلى درجة لم يشعر معها أن حياة الأغيار أكثر غنى وأكثر جمالاً من حياته ؟ كلا إن هذا مستحيل ونحن لا نستطيع أن نصدق هذا .

فإذا كان هناك احتقار للأغيار فلم يكن ذلك سوى حسد طبيعي يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء والرهبان تجاه الفرسان والعاجز تجاه القادر .

إن هذا الاحتقار لم يكن سوى استسلام لنصيبنا – نحن اليهود - في الدنيا ، وأحيانا نوع من العزاء لآمالنا في العالم الآخر يتلوه صرير أسنان وغضب داخلي عن وعي أو غير وعي " (1)

(1) الشيخ سيد سابق " اليهود في القرآن " .

## الرد على أسطورة شعب الله المختار

بيَّنا في الفصل الأول عهد يهوه لإبراهيم بامتلاك أرض كنعان ، وكيف آل هذا العهد لإسحاق من دون إسماعيل ، وإلى يعقوب ( إسرائيل ) من دون عيسو ، وفنَّدنا هذه الأسطورة التي يحتج بها اليهود على اختيار يهوه لهم ليكونوا شعبه المختار ، والآن نأتي إلى حجة أخرى يسوقها اليهود لتبرير اختيار يهوه لهم شعبًا مختارًا من دون العالمين .

## هل بنو إسرائيل أول الموحدين ؟

لقد ادَّعى اليهود أن سبب اختيار يهوه لهم ليس فقط أن يعقوب أباهم قد صارع الرب وحصل منه على لقب إسرائيل ، وأنه دعاه ابنه البكر بل لأنهم هم أول الموحدين ، وأن " يهوه " لم يُعْبَد وحده إلا بنزول التوراة على موسى . فقد كانت جميع الأمم السابقة عليهم أممًا مشركة تؤمن بتعدد الآلهة ، وتنحت لها التماثيل ، وترسم لها الصور . وأن سائر الأنبياء والمرسلين السابقين على موسى مشركين يدعون مع الله آلهة أخرى !!

فقد تلقى موسى الوصايا العشر التي تكونت من قسمين رئيسيين : قسم خاص بالعقيدة ينص على عبادة الله الإله الواحد ، وعدم تجسيد الإله أو تشبيهه بشيء من خلقه ، وهي الوصية التي فصلت بين التفكير الطبيعي والتفكير التاريخي فيما يتعلق بفكرة الإلوهية وهي الخطوط الفاصلة بين الإلوهية عند الساميين القدماء وتبلور فكرة التوحيد في اليهودية فهي دعوة إلى عدم تصوير الإله في صور طبيعية مأخوذة من الطبيعة وبداية التفكير في الإله تفكيرا نظريًّا مجردًا من خلال أعمال الإله في الطبيعة والتاريخ ، ولأول مرة يتم الفصل التام بين الإله وبين الطبيعة والتاريخ ويصبح الإله خالقًا للاثنين ، ومستقلاً بوجوده عنهما ، والوحي لم يأخذ شكله الأساسي في الدين السامي القديم إلا بعد أن أصبح أساسيًّا في العقيدة اليهودية.

---

([1]) هرتزبرج . أفراهام " الفكرة الصهيونية " ص ٢١٣ نقلا عن " الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية " د . رشاد الشامي دار الهلال ص ٤٩ .

والجزء الثاني من الوصايا خاص بالبناء الاجتماعي ، وتعتبر الديانة اليهودية أول ديانة سامية تحاول وضع قانون دائم ينظم المجتمع وعلاقات أفراده ولهذا نسمع لأول مرة عن نظام الشريعة (١)

إذن اليهود يزعمون أن أول دعوة إلهية للتوحيد هي الوصية الأولى من الوصايا العشر لموسى " ثُمَّ نَطَقَ اللهُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الأَقْوَالِ : " أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلَهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ دِيَارِ عُبُودِيَّتِكَ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى سِوَايَ. لاَ تَنْحَتْ لَكَ تِمْثَالاً، وَلاَ تَصْنَعْ صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ أَسْفَلِ الأَرْضِ.لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبَّ إِلَهَكَ، إِلَهٌ غَيُورٌ " (الخروج : ٢٠)

فتوحيد الله تعالى – في زعمهم - لم يحدث إلا بعد نزول التوراة أما قبل ذلك فقد كانت الناس كلهم مشركين وبهذا وصم اليهود جميع البشر قبل تلقي موسى التوراة بالشرك ولم يستثنوا حتى أنبياء الله تعالى من لدن آدم إلى موسى عليهم جميعًا صلوات الله تعالى .

والحقيقة أنه لا يؤمن بهذا الهُراء إلا من سَفَهَ نفسه ، وألغى عقله ، وجعل إلهه هواه فكيف يجوز شرعًا وعقلاً أن نحكم على جميع خلق الله قبل موسى بالشرك دون دليل إلا هذه التُرَهات ؟!

والحقيقة التي لا يجادل فيها إلا جاحد ولا يعترض عليها إلا معاند ولا ينكرها إلا كافر بكتب الله تعالى جميعًا ، أن البشرية قد عرفت التوحيد مع أبي البشر وأول الأنبياء آدم عليه السلام .

والتوراة نفسها تؤكد هذا " وَأَخَذَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَفْلَحَهَا وَيَعْتَنِيَ بِهَا. وَأَمَرَ الرَّبُّ الإِلَهُ آدَمَ قَائِلاً : " كُلْ مَا تَشَاءُ مِنْ جَمِيعِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ، لَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ لأَنَّكَ حِينَ تَأْكُلُ مِنْهَا حَتْماً تَمُوتُ" .

(التكوين : ٢)

(١) د. محمد خليفة حسن " دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة " دار الثقافة ص ٥٨

أكان آدم حينئذ مشركاً بالرب الإله وقد خلقه وأسكنه الجنة يأكل ما يشاء من جميع أشجارها ؟! .

" وَعَاشَرَ آدَمُ حَوَّاءَ زَوْجَتَهُ فَحَبِلَتْ، وَوَلَدَتْ قَايِينَ إِذْ قَالَتْ: " اقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ" . ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ، وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِياً لِلْغَنَمِ. أَمَّا قَايِينُ فَقَدْ عَمِلَ فِي فَلاَحَةِ الأَرْضِ. وَحَدَثَ بَعْدَ مُرُورِ أَيَّامٍ أَنْ قَدَّمَ قَايِينُ مِنْ ثِمَارِ الأَرْضِ قُرْبَاناً لِلرَّبِّ، وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضاً مِنْ خَيْرَةِ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَأَسْمَنِهَا. فَتَقَبَّلَ الرَّبُّ قُرْبَانَ هَابِيلَ وَرَضِيَ عَنْهُ. لَكِنَّهُ لَمْ يَتَقَبَّلْ قُرْبَانَ قَايِينَ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ." ( التكوين : ٤ )

أكان آدم وحواء يعبدان أحدًا غير الرب الإله الذي رزقهما قابين وهابيل ؟! أم كان قابين وهابيل يعبدان أحدًا غير الرب الإله الذي قدما له القرابين ؟!

" وَعَاشَرَ آدَمُ زَوْجَتَهُ حَوَّاءَ مَرَّةً أُخْرَى فَأَنْجَبَتْ لَهُ ابْناً أَسْمَتْهُ «شِيثاً» إِذْ قَالَتْ: «قَدْ عَوَّضَنِي اللهُ نَسْلاً آخَرَ عِوَضاً عَنْ هَابِيلَ الَّذِي قَتَلَهُ قَايِينُ». وَوُلِدَ لِشِيثٍ أَيْضاً ابْنٌ سَمَّاهُ أَنُوشَ وَعِنْدَئِذٍ ابْتَدَأَ النَّاسُ يَدْعُونَ بِاسْمِ الرَّبِّ." ( التكوين : ٤ )

من هذا الرب الإله الذي بدأ الناس يدعون باسمه " أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ " ؟!!

وجاء في توراة اليهود رضا الله تعالى عن نوح ، أكان الله تعالى راضيًا عن مشرك به عابد لغيره ؟!

" وَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو الإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ عَنْ وَجْهِ الأَرْضِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالزَّوَاحِفِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي خَلَقْتُهُ». أَمَّا نُوحُ فَقَدْ حَظِيَ بِرِضَى الرَّبِّ . " ( التكوين : ٦ )

فهل كان نوح مشركًا بالله الذي أنقذه هو وأهله وأغرق الكافرين ؟!

«هَيَّا ادْخُلْ أَنْتَ وَأَهْلُ بَيْتِكَ جَمِيعاً إِلَى الْفُلْكِ لأَنِّي وَجَدْتُكَ وَحْدَكَ صَالِحاً أَمَامِي فِي هَذَا الْجِيلِ " ( التكوين : ٧ )

" وَبَنَى نُوحٌ مَذْبَحاً لِلرَّبِّ ثُمَّ اخْتَارَ بَعْضاً مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَالطُّيُورِ الطَّاهِرَةِ وَقَرَّبَهَا مُحْرَقَاتٍ عَلَى الْمَذْبَحِ. فَتَقَبَّلَهَا الرَّبُّ بِرِضًى " ( التكوين : ٨ )

من هذا الرب الذي بَنَى له نوحٌ مذبحاً وقرَّب إليه القرابين ؟ أأله غير الذي أنقذه من الطوفان ؟!

وكثيرة تلك المواضع التي تتحدَّث عن هذا الرب الإله في التوراة من لدن آدم حتى موسى الذي يريد اليهود أن ينسبوا له وحده تعليم البشرية جمعاء التوحيد !!!

## بداية التوحيد

إن الأصل في عقائد البشرية من لدن آدم هو التوحيد ، وما الشرك إلا خروجًا عليه وهذا ثابت كما بينا في توراة اليهود ، وهو واضح لا ريب فيه في القرآن الكريم. فقد فطر الله تعالى بني آدم جميعًا على الإيمان به وتوحيده ، وعدم الإشراك به شيئا وأخذ عليهم العهد .

{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ }
( الأعراف : ١٧٢ ، ١٧٣ )

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم ، من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم وإلههم ، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى :

{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ } ( الروم : ٣٠ )

وتناقش بعض الصحابة في الغزوات حول أبناء المشركين وذريتهم أيقتلون كآبائهم المقاتلين ؟

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه، ثم قال: "ما بال أقوام يتناولون الذرية " ؟ فقال رجل: يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ، فقال: " إن خياركم أبناء المشركين، ألا إنها ليست نسمة ولد تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسانها ، فأبواها يهودانها وينصرانها " ( رواه أحمد والنسائي )

فالأصل في الإنسان - أي إنسان - هو الإيمان أما الكفر والشرك فطارئان عليه بسبب الموروثات المختلفة والعقائد الباطلة "

وتوحيد البشر لم يبدأ البشر لم يبدأ بموسى كما زعم اليهود إنما بدأ بأبي البشر آدم عليه السلام ، كما ذكرت التوراة نفسها وأكد ذلك القرآن الكريم .

يقول تعالى :

{ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ } (البقرة : ٣٧ )

عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: { فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ } قال: الكلمات : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني، إنك خير الراحمين. اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي، إنك أنت التواب الرحيم . (1)

أبعد هذا الدعاء يوصف آدم وذريته بالشرك ؟! وإن كان آدم مشركًا – فرضًا – فهلا أخبرنا اليهود ما الآلهة التي أشرك بها آدم مع الله تعالى !

كيف يكون آدم مشركًا وهو مُصْطَفَى من الله تعالى وكثير من ذريته يقول تعالى :

{ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ {٣٣} ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } ( آل عمران : ٣٣، ٣٤ )

(1) تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٣٩

والقرآن الكريم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك تقوى هابيل ابن آدم وصلاحه وخوفه من الله رب العالمين .

{ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ }

إن التوحيد الذي هو أساس الإسلام هو دين الله تعالى الذي ارتضى للبشرية ودعا كل أنبياء الله تعالى الناس إليه .

{ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ *وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } ( البقرة : ١٣٠- ١٣٢)

فمن المشرك إذن إبراهيم عليه السلام أم اليهود الذين يقولون بشركه ؟!

## المصريون القدماء والتوحيد

الحقيقة التي أكدتها البرديات القديمة أن المصريين موحِّدون ، نعم موحدون يؤمنون بالله الواحد الأحد وبكل العقائد الإلهيِّة التي جاءت بها الكتب المقدسة بعد ذلك .

سعياً وراء البحث عن أصول الديانة المصريَّة وأسسها وفلسفتها نجد عباس محمود العقاد يؤكد في دراسته لمفهوم الألوهيَّة . في هذه الديانة أنه في هذه العهود السحيقة " وصل المصريون إلى التوحيد " وهو برأيه هذا ليس فريداً فيبدو أنه بذلك يسير على نفس درب بعض ذوي التخصص في الدراسات المصريَّة القديمة لأن "برستد " قد سبقه وأشار إلى نفس المعنى حيث بيَّن " .. وقوع بعض الناس في الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ، ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن

في أصل ديانتهم " ، وذهب معه " رودلف أنتس " إذ أكَّد أنه قد " .. عُرفت فكرة وجود الإله الأزلي منذ أوَّل بدء التاريخ المصري " وقد دعَّم هذا الرأي وعلا به أكثر د. أحمد بدوي بتأكيده : إن المصريين قد ".. عرفوا أن الله واحد لا شريك له " بل إنهم " قد نزَّهوا الخالق عن طبيعة الأشياء ".(١)

وليس فقط هؤلاء من أكدُّوا توحيد المصريين القدماء فهناك العديد من العلماء والباحثين الذين أكَّدوا هذه الحقيقة منهم العالم الفرنسي شمبليون مكتشف ومترجم نصوص حجر رشيد حيث يقول : " لقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحَّة ما رواه "جامبليك "وما ذكره غيره من المتأخرين من أن الأمَّة المصريَّة كانت أمَّة موحِّدة في عبادتها لله ، وأنهم لمَّا توغَّلوا في سبيل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة علموا أن الروح أبديَّة واعتقدوا بصحَّة الحساب والعقاب " .

وفي عام ١٨٣٩ بعد وفاة " شمبليون " نشر أخوه " فيجاك " نقلاً عنه خلاصة ما كان قد توصَّل إليه بعد طول بحث ودراسة : "إن الديانة المصريَّة توحيد خالص"

ويذكر العالم البريطاني " والس بدج " : { إن أكثر المؤيِّدين لنظريَّة التوحيد في مصر القديمة هو " د. بروجش " الذي جمع عدداً هائلاً مدهشاً من الفقرات المصريَّة الأصليَّة ، ومن هذه الفقرات نختار ما يأتي :

" الإله واحد لا ثانيَ له "

" الإله باطن خفي" ( الذي لا تدركه الأبصار )

" وهو خالق يعرف تكوينه ولا أحد يمكنه أن يدرك كنهته وماهيته ،ولا شبيه له"

" هو خالق الكون وكل ما فيه ، خالق السموات والأرض والأعماق ( ما تحت الثرى ) والمياه والجبال .. إلخ "

(١) د. سيد القمني " عقيدة الخلود في مصر القديمة " المركز المصري لبحوث الحضارة ص ٩١

وهذا القول قال به العالم الفرنسي " دي روجيه " ، وعالم الآثار " دي لاروج " ، وعلماء الأثار : " ماريت " ، و" بيريت " و " ماسبيرو " .

لقد نشر " والس بدج " كتاباً فيه تلخيص لخلاصة ما توصل إليه هؤلاء العلماء وغيرهم جاء فيه " ومن الصفات المنسوبة إلى الله " God " في النصوص المصريَّة من كل العصور انتهي بروجش ، ودي روجيه ، وعلماء المصريَّات الكبار الآخرون إلى فكرة أن سكَّان وادي النيل من أبكر وأقدم العصور عرفوا وعبدوا إلهاً واحداً .. أزليّاً .. أبديّاً .. لا تدركه العقول ،ولا يمكن استكناه ماهيَّته" .

ونشر والس بدج كتاباً آخر أكد فيه ما سبق أن ذكره من تماثل توحيد قدماء المصريين وتوحيد اليهود والمسلمين يقول فيه : " إنه لا توجد صعوبة في إظهار أن فكرة التوحيد التي وجدت في مصر منذ العصور المبكرة لا تختلف في ملامحها عن تلك التي نمت بين العبرانيين (اليهود) والعرب (المسلمين) " (١)

لم يكن التوحيد قاصرًا على المصريين القدماء فقط ، فقد عرفت شعوب أخرى التوحيد قبل بني إسرائيل . ففي نشيد الخلق البابلي تقول الآلهة عن مردوخ: "إذا كان الناس قد تقسَّموا بين الآلهة، فإنه إلهنا، مهما اختلفت تَسْمِيَاتُنا التي أطلقناها عليه".

ولقد كان " شمس " إله الشمس، ولكنه في الوقت نفسه الإله الأعلى الذي يُملِي على الملك حمورابي، (١٧٩٢- ١٧٥٠) ق . م ، "شريعة العدل"، التي لا تختَلِف في شيء عن "شريعة العهد" التي أملاها يهوه على موسى بعد خمسمائة عام .

ومع ذلك فإن شهادة أولبرايت، المعروف بتعاطفه مع تقاليد بني إسرائيل - ذات مغزى، حيث يقول: "إن كتاب العهد، ( الخروج ٢١- ٢٣) هو ناموس شرعي ذو أجزاء من نَمَط شريعة حمورابي.

(١) لمزيد من أقوال علماء المصريات حول توحيد القدماء المصريين راجع د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " الفصل الثاني " إشراق الحقيقة " .

وإذا كانت القوانين الحثية "في القرن الرابع عشر ق.م"، والقوانين الأشورية "في القرن الثاني عشر ق.م" تَستَمِدُّ صياغاتها من الأحكام القضائية السومرية في الألف الثالث قبل الميلاد، فإن كتاب العهد ليس سوى الشكل المُنَقَّح بمجموعة من القوانين أكثر قدمًا، وهي تتفاوت في تعميمها، للتعبير عن الظروف المحلية التي كانت سائدة في كنعان، والتي قد تَكُون انتقلت إلى أيدي الإسرائيليين خلال عصر القُضاة. (١)

## تاريخ اليهود مع التوحيد

بعد خروج الناس على رسالة التوحيد التي جاء بها الأنبياء اختار الله تعالى أنبياء بني إسرائيل لتبليغ رسالته إليهم وفضَّل المؤمنين بهؤلاء الرسل من بني إسرائيل على سائر العالمين من الكفار والمشركين .

{ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } ( البقرة : ٤٧ )

يُذكِّر الله تعالى اليهود سَالفَ نعمه على آبائهم وأسلافهم، وما كان فَضَّلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: { وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } ( الدخان: ٣٢ )، وقال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ } ( المائدة: ٢٠) (٢)

وتفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم ، فأما بعدما عتوا عن أمر ربهم ، وعصوا أنبياءهم ، وجحدوا نعمة الله عليهم ، وتخلوا عن التزاماتهم وعهدهم ، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة ، وقضى عليهم بالتشريد وحق عليهم الوعيد . (٣)

---

(1) رجاء جارودي " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " الباب الأول ، الفصل الأول : الحضارة الكنعانية . مرجع سابق .

(2) تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٥٥ .

(3) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ١ ض ٤١ .

وهذا مصير كل أمة بدَّلت نعمة الله كفرًا ، لأن الميزان عند الله للتقوى والفعل الصالح ، وليس للجنس أو اللون أو النسب .(١)

فالاختيار الإلهي لبني إسرائيل كان مشروطاً بالإيمان بالله تعالى وحده والعمل بالشرائع السماوية ، والاختيار لم يكن قاصرًا عليهم وحدهم إنما كان شاملاً لكل من آمن بالله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين .

لكن الذي حدث أن عملية الاختيار الإلهي لبني إسرائيل انتهت إلى نتيجة غير طبيعية وهي الدخول مع الإله في علاقة خاصة يصبح فيها الإله إلهاً للشعب الإسرائيلي ، ويصبح الشعب الإسرائيلي عبدًا للإله الإسرائيلي ، ولم ينته الأمر عند الاستئثار بالإله والرسالة ولكنه يتعدى ذلك إلى فكرة الاختيار للأفضلية العنصرية والتي كانت منطلقًا لاغتراب الإسرائيلي في العالم القديم والوسيط ، ولا نزال نجد لها مبررات في عالمنا الحديث والمعاصر .

وهكذا اعتقد الإسرائيلي القديم أنه أفضل خلق الله ، وأنه مختار الرب ، وانتهجت اليهودية سياسة عدم التبشير بالتوحيد ، واعتباره شأنا دينيًّا يهوديًّا لا يخص بقية البشرية ، وهذا التخصيص للتوحيد أدى إلى ما يمكن أن تسميته بالغربة الدينية فللإسرائيليين إلههم ، وللشعوب الأخرى آلهتها ، وأصبحت الرابطة بين الإله والشعب رابطة عصبية دموية لا يسمح لغير الإسرائيلي باتخاذ الإله الإسرائيلي إلهاً له ، ووضعت شروطا عنصرية عِرقية للتحول إلى اليهودية .

وكنتيجة لهذه العلاقة الخاصة بين الإله والشعب أصبحت وظيفة الإله - فيما يختص بالخلاص - مرتبطة بشعبه ، ولا تمتد لغيره . فالإله مسئول عن خلاص شعبه ، وتحقيق هلاك أعداء شعبه .

وقد أدت هذه الأصول الثلاثة : الاختيار ، والتوحيد الخاص ، والخلاص الخاص إلى ما أصبح معروفًا باسم " العنصرية اليهودية " التي تعني في المقام الأول وضع

(1) محمد سيد طنطاوي " التفسير الوسيط " ص ٣٨٤٤ .

سياج حول الشخصية اليهودية فيمنعها من الاختلاط والاندماج في غيرها ، وتحاول تحقيق هذا من خلال مفاهيم دينية أعيد تفسيرها لكي تعطي هذا المعنى .(1)

ولكن حتى هذا التوحيد الخاص بالإله الخاص فإن اليهود كثيرًا ما خرجوا عليه وعبدوا آلهة أخرى . ودونك هذه الأمثلة من توراتهم .

" ولما رأى الشعب أن موسى قد طالت إقامته على الجبل ، اجتمعوا حول هارون ، وقالوا له : " هيا ، اصنع لنا إلهًا يتقدمنا في مسيرنا ، لأننا لا ندري ماذا أصاب موسى الذي أخرجنا من ديار مصر " ( الخروج : ٣٢ )

" وأقام الإسرائيليون في شطيم فشرع الرجال يرتكبون الزنى مع الموآبيات اللواتي أغوين الشعب لحضور ذبائح آلهتهن والأكل منها والسجود لها . فاشترك الإسرائيليون في عبادة بَعْل فغور . فاحتدم غضب الرب عليهم . " ( العدد : ٢٥ )

" واقترف بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا البَعْلِيم ، ونبذوا الرب إله آبائهم الذي أخرجهم من ديار مصر وغووا وراء آلهة أخرى من أوثان الشعوب المحيطة بهم ، وسجدوا لها ، فأغاظوا الرب . وتركوا الرب وعبدوا البَعْل وعَشْتَارُوث . فاحتدم غضب الرب على إسرائيل " ( القضاة : ٢ )

واستطاعت الألف امرأة اللاتي تزوجهن سليمان من غير الإسرائيليات " في زمن شيخوخته أن يغوين قلبه وراء آلهة أخرى ، فلم يكن قلبه مستقيمًا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه وما لبث أن عبد عشتاروث آلهة الصِّيدُونيِّين ، وملْكُوم إله العَمُّونيين البغيض ، وارتكب الشر في عين الرب ، ولم يتبع سبل الرب بكمال كما فعل أبوه داود . وأقام على تل شرقي أورشليم مرتفعا لِكَمُوش إله المُوآبيين الفاسق ، ولِمُولَك إله بني عَمُّون البغيض . وشيد مرتفعات لجميع نسائه الغَرِيبات ، اللواتي رحن يوقدن البخور ويقربن المحرقات لآلهتهن " ( ملوك الأول : ١١ )

(1) انظر د. محمد خليفة حسن " دراسات في تاريخ وحضارة الشعوب السامية القديمة " دار الثقافة للنشر والتوزيع . مبحث " أصول الاغتراب في العهد القديم " .

فإن قال اليهود إنما كان الشرك والكفر في عصور بائدة إنما نحن مؤمنون موحِّدون لذا فقد أعادنا الله إلى أرض الميعاد ، نقول لهم أن الإحصاءات تثبت أن معظم يهود العالم بما فيهم سكان دولة إسرائيل ، ومؤسسو الصهيونية غير متدينين .

" فَحَسَب إحصاءات الحكومة الإسرائيلية فإن ١٥ % فقط من الإسرائيليين متدينون " (1) .

والباقي لا يتمسكون باليهودية ولا يتقيدون بشريعتها ومن يؤد منهم طقسًا دينيًّا إنما يؤديه أداء صوريًّا مجردًا من الروحانية فهو بالنسبة له مناسبة وطنية ليس أكثر .

ودونك ما كتبه علماء اليهود المعاصرون : " إن معظم اليهود في الوقت الحالي يعيشون في الغالب خارج إطار التصورات اليهودية التقليدية للإله. فعلى الصعيد اليومي، إن كثيرًا من اليهود يتصرفون أساسًا كأنهم لا يعلمون شيئًا ويتجنبون اتباع معظم الأوامر الشعائرية والثقافية التابعة للديانة اليهودية. إنهم يميلون إلى اختيار نوع أوامر الالتزام بناء على معايير شخصية في غاية الفردية. يؤم كثير منهم المعبد، ويصوم يوم الغفران الذي يعتبر أقدس يوم في التقويم اليهودي، ويحتفلون أيضا بذكرى الجلاء من مصر في عيد الفصح، لكنهم لا يختارون الانصياع لمعظم أوامر الشعائر الأخرى، ويوصف هذا النوع من السلوك بالازدواجية ليس فقط فيما يتعلق بالتقيد بالأوامر، لكن وكذلك فيما يتعلق بعدم التأكيد من دور الإله ومطالبه .(2)

والعجيب أن الإسرائيليين الذين لا يختارون الانصياع لمعظم أوامر الشعائر اليهودية يعدُّون أنفسهم مؤمنين ، فالإيمان المطلق بالله ليس شرطًا لاحتلال وضع محترم في المجتمع اليهودي !!

---

(1) رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٢٨٦ .

( 2) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ٨٦

" يعتبر معظم اليهود أنفسهم مؤمنين، بحسب استطلاع حديث، لكن إيمانهم بالله لا ينطبق بالضرورة على التصورات التقليدية التي قدمها التقليد اليهودي ، فإن الإيمان المطلق بالله ليس شرطًا لاحتلال وضع محترم في المجتمع اليهودي. وقد توصلت الديانة اليهودية إلى نتيجة مفادها أن الإيمان الشخصي لا يخضع للتشريع. فبالإمكان تشجيع الفرد، لكن لا يمكن إجباره على الإيمان، لأن الإيمان هو نوع من التجربة الشخصية ومن الأمور الخاصة بالفرد. ومن جهة أخرى فإن السلوك الصحيح يخضع للتوقع وللانتقاد .وتقف التقسيمات بين منابع الدين اليهودي وتفسيرات حول كيفية فهم واجبات اليهودي للتصرف استجابة لأوامر الله " (1)

إذن فاليهود ليسوا أول الموحدين ليستحقوا اختيار الله لهم ، وليسوا آخر الموحدين ليستحقوا الخلاص في آخر الزمان .

## هل هناك شعب مختار لجنسه ؟

من الحقائق الإيمانية التي جاءت في الكتب المقدسة وعلى لسان جميع الأنبياء والرسل أنه ليس بين الله تعالى وشعب من الشعوب صلة نسب ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ، كما أنه ليس هناك شعب مختار لجنسه ، وإنما هناك مؤمنون صالحون، وهناك كفار مفسدون ، وخلق بينهم كثيرون .

فجميع الشعوب والقبائل متساوية في الخلق ، ولا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح . وهذه التقوى علمها عند الله فلا ينبغي أن يزكي إنسان أو شعب نفسه فالله تعالى هو أعلم بمن اتقى .

{ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى } ( النجم : ٣٢ )

---

( 1) نفسه ص ٨٦

والحقيقة أن هناك من المفكرين اليهود من لا يعترف بفكرة شعب الله المختار ، وأن التوحيد كان من لدن آدم وأن كل ذلك ثابت في التوراة والتلمود وفي ذلك يقول علماء اللجنة اليهودية الأمريكية : " لقد خاض المفكرون اليهود معركة فكرية مع مسألة اختيار التوراة لبني إسرائيل كالمتسلمين الوحيدين للتوراة. هل هذه خصوصية وإبعاد ؟ هل هذا يعني أن في طبيعة اليهود ما يجعلهم أفضل من أي أمة قومية أخرى ؟ هل اليهود شعب أرفع مقامًا لأن التوراة نزلت عليهم ؟ إن التوراة نفسها لم يعطِ إجابات قاطعة. فمن جهة، تقول (التثنية ١٤:٢). "إنكم شعب مقدس للرب إلهكم ، وقد اختاركم من بين شعوب الأرض كافة لتكونوا له شعبًا خاصًا. ومن جهة أخرى ، تقول في عاموس (٩:٧) "ألستم لي يا بني إسرائيل مثل الكوشيين؟ ألم أخرج إسرائيل من ديار مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير؟ "

" ٧ ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل يقول الرب ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والآراميين من قير " ( عاموس : ٩ ) [1]

هذا يؤكد أن إله إسرائيل يسوي بين بني إسرائيل ، والشعوب الأخرى فهم بالنسبة للرب كالكوشيين ، وأن إنقاذ بني إسرائيل بإخراجهم من مصر لم يكن عملاً قاصرًا عليهم فقط فقد أنقذ الفلسطينيين بإخراجهم من كفتور ، والآراميين بإخراجهم من قير.

إن الكهنة في التلمود، مثل العهد القديم نفسه، يشعرون بعدم الارتياح للتصور الخصوصي لليهود في الديانة اليهودية. يعطي التلمود، أحيانًا ، تفسيرات مباشرة لآيات العهد القديم كما جاء في الرسالة التلمودية للأب زارة ٢٦ : ألم يرد في (التوراة) أن "أقبل الرب من سيناء، وأشرف عليهم من سعير، وتألق في جبل فاران "(التثنية ٣٣:٢). وورد فيها أيضًا: "لقد أقبل الله من آدم" (حبقوق ٣: ٣ ) ماذا كان الرب يريده في سعير وفي جبل فاران ؟ يقول الكاهن يوحنان : " يعلمنا

[1] الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ٣٦

هذا أن الرب المقدس تبارك وتعالى قد أعطى التوراة لكل أمَّة ولسان، لكن لم يقبلها أحد حتى جاء إلى إسرائيل التي تقبلتها". ونجد في مكان آخر من التلمود شبهًا ممتعًا للنص القرآني ٢:٦٣[1] ، ٢: ٩٣ [2] و ٤:١٥٤[3] "فأخرج موسى الشعب من المخيم للقاء الله، فوقفوا عند سفح الجبل" ( التثنية ١٧ : ١٩)

يقول حما بن حسا " إن هذا يعلمنا أن الرب المقدس قلب عليهم الجبل رأسًا على عقب كبرميل مقلوب وقال لهم: "إذا تقبلتم التوراة ، فذلك حسن، وإذا لم تقبلوها فإن هذا سيكون قبركم." ( شبات ٨٨ أ )

يعترف هذان التفسيران ويؤكدان بأن الشعب الإسرائيلي ليس في طبيعته ما يجعله أفضل من أي أمة أو شعب آخر. والشيء الوحيد الذي يميز بني إسرائيل هو استعدادهم ليكونوا أول من تقبل الأوامر الإلهية والعيش بحسب القانون الرباني. ففي العهود القديمة ، لا يوجد شعب بحسب علمنا، أخذ على عاتقه التخلي عن الوثنية والعيش في ظل القانون الإلهي. كان بنو إسرائيل دائمًا أمة صغيرة محاطة بشعوب وثنية، فلذلك ليس من الغريب ملاحظة أنهم يعيشون بمعزل عن الشعوب التي يعيشون في وسطها. إن هدف هذا السلوك كان الحفاظ على العقيدة الوحدانية لبني إسرائيل، لكن هذا الهدف فُسِّر في الفترة اليونانية ـ الرومانية أنه نخبوي . لم تكن رغبة بني إسرائيل في العيش عن معزل من الشعوب الأخرى نابعة من شعور نخبوي، بقدر ما هي نابعة من سمة البقاء بعيداً عن الانغماس في الوثنية المتفشية التي يمارسها اليونان والرومان وشعوب الحضارات القديمة "[4]

---

(1) {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } (البقرة:٦٣)

(2) { وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا {١٥٤} ( النساء : ١٥٤ )

(3) { وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ } ( البقرة : ٩٣ )

(4) الحاخام روبن فايرستون و د. ستيفن ستاينلايت و الحاخام جيمز أ. رودين . وآخرون " ذرية إبراهيم " مرجع سابق ص ٣٦- ٣٧

إذن لم يعدم اليهود من المفكرين الذين رأوا بأن الشعب الإسرائيلي ليس في طبيعته ما يجعله أفضل من إي أمة أو شعب آخر . ولا من كهنة التلمود الذين يشعرون بعدم الارتياح للتصور الخصوصي لليهود في الديانة اليهودية . ولا منصوص التوراة التي تثبت تجلي الله لشعوب أخرى غير بني إسرائيل مثل شعب "سعير" ، "جبل فاران" .

وهذا ما ينادي به الحاخامات اليهود المخلصين لإيمان أنبيائهم ومنهم الحاخام موشى ما نوحين في كتابه " انهيار اليهود " الذي أكّد فيه أنه على عكس شمولية الأنبياء فإن التفسير القَبَلي والقومي لتحالف الله مع الشعب المختار الذي وضعه الصهاينة مثل بن جوريون ، وموشى ديان ، وشيمون بيريز ، والعصابة العسكرية بأكملها التي اجتاحت إسرائيل والذين جعلوا من الوكالة اليهودية والمنظمات الصهيونية في العالم أجمع أجهزة تابعة لحكومة إسرائيل لها نفس الأيديولوجية العنصرية الموجودة لدى المناهضين للسامية .

ويذكر موشى مانوحين في كتابه " انهيار اليهود " أن شعوب العالم اليوم تشعر بالاشمئزاز من عبارات الجنس المتفوق والشعب المختار وعبء الرجل الأبيض والأحلاف مع الله وأرض الميعاد كل تلك الادعاءات أصبحت اليوم مستهلكة بسبب ما ترتكبه ضد الشعوب الأضعف .

إن هذه الفكرة المحددة لدى الصهيونية هي أسوأ عدو لإسرائيل فسوف تقودها إلى الهزيمة مثل كافة الإمبراطوريات التي أسست على هذه الأيديولوجية من نابليون حتى هتلر . (1)

ويقول جان جاك روسو في كتابه عن اليهود المتعصبين : " إن إلهكم ليس هو إلهنا إن الإله الذي يختار لنفسه شعباً واحدًا وينكر بقية الجنس البشري ليس هو الأب المشترك لجميع الناس . (1)

(1) نقلا عن رجاء جارودي " الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية " مرجع سابق ص ٣٣٨ ، ٣٣٩

ويقول جارودي : " العِبرانيون وهو يخصون أنفسهم بميزة الوعد، والاختِيار الإلهي، والإغريق باحتقارهم المألوف للبرابرة [2] والرومان بعقدة تفوقهم وامتيازهم، "والكنيسة التِي ستخْلفهم، وهِي تعبر الكون كله كاثوليكيًّا"، وذلِك الفرِيق من المسلمين الذِين انزووا فِي فرديتهم، وفسروا آية القرآن عن (خَيْرَ أُمَّةٍ)، لا على أنها دعوة وتكلِيف ، بل على أنها اِمتِياز مُكتَسب، يتجلى فِي روح تُشعر بالكفاءة المزهوة ـ كل هؤلاءِ يعتبرونَ أنفسهم مركز العالِم "بنفس القدر من السذاجة الذِي كان يدفع أباطرة الصين إلى الادعاء بأنهم يحكمونَ "الإمبراطورية المتوسِّطة".

لقد ضخَّم الغربيون هذا الاتجاه حِين أضْفَوا صفة العلمانية على الأشكال القدِيمة "لِلعِنايةِ الإلهيَّة" فوضعوها تحت اِسم: "التقدم" . [3]

## النهي عن تزكية الإنسان نفسه

ينهى الله تعالى عن أن يمدح الإنسان نفسه أو يُثني عليها أو يَمن بعمل عمله على الناس ، فالله تعالى عليم بالناس : صالحهم وطالحهم ، وهو جل شأنه الذي يُزَكّي من يشاء .

قال تعالى : { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا } ( النساء: ٤٩ ) .

قوله تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ } هذا اللفظ عام في ظاهره ولم يختلف أحد من المتأوِّلين في أن المراد اليهود .

واختلفوا في المعنى الذي زكُّوا به أنفسهم، فقال قتادة والحسن: ذلك قولهم : (نحن أبناء الله وأحباؤه)، وقولهم : (لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى)

---

(1) نفسه ص ٣٤١

(2) يعني الإغريق بالبرابرة كل من ليس منهم .

(3) نقلا عن " فلسطين أرض الرسالات الإلهية " مرجع سابق الباب الثاني ، الفصل الأول : العهد القديم وميلاد الصهيونية المسيحية .

وقال ابن عباس: ذلك قولهم آباؤنا الذين ماتوا يشفعون لنا ويزكوننا.

وقال عبد الله ابن مسعود: ذلك ثناء بعضهم على بعض .

وهذا أحسن ما قيل، فإنه الظاهر من معنى الآية، والتزكية: التطهير والتبرئة من الذنوب .

وقوله تعالى: (فلا تزكوا أنفسكم) يقتضي الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام **بأن** الزاكي المزكى من حسنت أفعاله وزكاه الله عز وجل فلا عبرة بتزكية الإنسان نفسه، وإنما العبرة بتزكية الله له . (1)

لقد اختار الله بني إسرائيل فعلاً لحمل الأمانة وأداء الرسالة ، وفضَّلهم على العالمين في ذلك الأوان؛ وأهلك لهم فرعون وملأه ، وأورثهم الأرض المقدسة . ولكنهم انحرفوا بعد ذلك عن منهج الله؛ وعتوا في الأرض عتواً كبيرًا ، واجترحوا السيئات التي تضج منها الأرض ، وأحل لهم أحبارهم ما حرم الله وحرموا عليهم ما أحله لهم ، واتبعوهم؛ ولم ينكروا عليهم حق الألوهية هذا الذي ادَّعوه عمليّاً - بهذا التحريم والتحليل - وقد بدَّل هؤلاء الأحبار في شريعة الله ، ليرضوا ذوي السلطان والشرفاء؛ وليتملقوا كذلك رغبات الجماهير وأهواءهم . وبذلك اتخذوا أحبارهم أرباباً من دون الله . وأكلوا الربا . ووهنت علاقتهم بدين الله وكتابة الذي أنزله عليهم . وعلى الرغم من ذلك كله - وغيره كثير - فقد ظلُّوا يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه . وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة . وأنه لا يهتدي ولا يقبل عند الله إلا من كان هوداً ! كأن المسألة مسألة قرابة ونسب ومحاباة بينهم وبين الله - تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً - فالله لا تصل بينه وبين أحد من خلقه قرابة ولا نسب؛ إنما تربط عباده به العقيدة المستقيمة والعمل الصالح ، والاستقامة على منهجه تعالى . (2)

---

(1) تفسير القرطبي للآية الكريمة .

(2) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج٢ ص ١٥٠ .

## تحالف اليهود مع أعداء الله من أجل مصالحهم

يهود الأمس واليوم ليسوا دعاة حق ولا حلفاء صدق ولا طلاب آخرة إنما هم دعاة باطل وحلفاء إبليس وطلاب دنيا وفي سبيل مصالحهم الخاصة على استعداد أن يتحالفوا مع من لا خلق له ولا دين من الجنة والناس .

وقديماً تحالفوا مع مشركي مكة أبي سفيان وحزبه ضد موحدي المدينة رسول الله وصحبه .

عن ابن عباس قال : " كان الذين حزَّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة ، حيي بن أخطب ، وسلام بن الحقيق ، وأبو رافع ، والربيع بن الحقيق ، وأبو عامر ، ووحوح بن عامر ، وهودة بن قيس ، فأما وحوح وأبو عامر وهودة ، فمن بني وائل ، وكان سائرهم من بني النضير .

فلما قدموا على قريش قالوا : هؤلاء أحبار يهود ، وأهل العلم بالكتاب الأول . فاسألوهم : أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم . فقالوا : دينكم خير من دينه ، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه . فأنزل الله تعالى { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ} (النساء : ٥١ ) إلى قوله عز وجل : { وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا } ( النساء : ٥٤)

وهذا لعن لهم ، وإخبار بأنه لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة . لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين . وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم . وقد أجابوهم ، وجاءوا معهم يوم الأحزاب؛ حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق ، وكفى الله شرهم { وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا } (1)

لقد شهد بقبح اليهود في موقفهم هذا واحد منهم هو الدكتور إسرائيل ولفنسون . فقد قال فى كتابه " تاريخ اليهود في جزيرة العرب " معلّقاً على هذه القصة : وكان من

---

(1) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٣٣٦

واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في هذا الخطأ الفاحش ، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ولو أدَّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأن بني إسرائيل الذين كانوا لمدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية .

كان من واجبهم أن يضحُّوا بحياتهم وكل عزيز عليهم في سبيل أن يخذلوا المشركين ، هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأوثان ، إنما كانوا يحاربون أنفسهم ، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من عبدة الأصنام ، والوقوف منهم موقف الخصومة . (1)

إن هذا موقف جمهرة اليهود دائماً من الحق والباطل ، ومن أهل الحق وأهل الباطل ، إنهم ذوو أطماع لا تنتهي ، وذوو أهواء لا تعتدل ، وذوو أحقاد لا تزول ! وهم لا يجدون عند الحق وأهله عوناً لهم في شيء من أطماعهم وأهوائهم وأحقادهم إنما يجدون العون والنصرة - دائماً - عند الباطل وأهله . ومن ثم يشهدون للباطل ضد الحق؛ ولأهل الباطل ضد أهل الحق !

هذه حال دائمة ، سببها كذلك قائم . . وكان طبيعيًّا منهم ومنطقيًّا أن يقولوا عن الذين كفروا : هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً !

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا } .

ولقد يهولنا اليوم أن نجد دول الغرب كلها نصيراً لليهود . فنسأل : وأين وعد الله بأنه لعنهم ، وأن من يلعن الله فلن تجد له نصيراً ؟

ولكن الناصر الحقيقي ليس هو الناس . ليس هو الدول . ولو كانت تملك القنابل الأيدروجينية والصواريخ . إنما الناصر الحق هو الله . القاهر فوق عباده : ومن هؤلاء العباد من يملكون القنابل الأيدروجينية والصواريخ !

(1) نقلا عن محمد سيد طنطاوي تفسير " الوسيط " ج1 ص ٩٦٩ ، ٩٧٠

والله ناصر من ينصره { وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } [الحج:٤٠] والله معين من يؤمن به حق الإيمان ، ويتبع منهجه حق الاتباع؛ ويتحاكم إلى منهجه في رضى وفي تسليم .

ولقد كان الله سبحانه يخاطب بهذا الكلام أمَّة مؤمنة به ، متبعة لمنهجه ، محتكمة إلى شريعته . وكان يهوِّن من شأن عدوها - اليهود - وناصريهم . وكان يعد المسلمين النصر عليهم لأنهم - اليهود - لا نصير لهم . وقد حقق الله لهم وعده .

وعده الذي لا يناله إلا المؤمنون حقاً . والذي لا يتحقق إلا على أيدي العصبة المؤمنة حين تقوم .

فلا يهولننا ما نلقاه من نصرة الملحدين والمشركين والصليبيين لليهود . فهم في كل زمان ينصرونهم على الإسلام والمسلمين . . فليست هذه هي النصرة ولكن كذلك لا يخدعننا هذا . فإنما يتحقق هذا الأمر للمسلمين! [1]

والإعلان العالمي لحقوق الإنسان ساوى بين البشر جميعًا دون تميز بسبب الجنس أو اللون أو الدين .

وإليك ما جاء في ديباجته ، وأهم ما نص عليه في هذا الشأن .

## الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

في ١٠ ديسمبر ١٩٤٨، اعتمدت الجمعية العامة للأمم المتحدة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وأصدرته، وبعد هذا الحدث التاريخي، طلبت الجمعية العامة من البلدان الأعضاء كافة أن تدعو لنص الإعلان و"أن تعمل على نشره وتوزيعه وقراءته وشرحه، ولاسيما في المدارس والمعاهد التعليمية الأخرى، دون أي تمييز بسبب المركز السياسي للبلدان أو الأقاليم."

---

([1]) راجع تفسير سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج ٢ ص ١٥٤ .

**الديباجة**

لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم .

ولما كان تناسي حقوق الإنسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال همجية آذت الضمير الإنساني، وكان غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة.

ولما كان من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الإنسان لكيلا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم .

ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أكدت في الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قدماً وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح .

ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الأمم المتحدة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الإنسان والحريات الأساسية واحترامها .

ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد .

فإن الجمعية العامة تنادي بهذا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع، واضعين على الدوام هذا الإعلان نصب أعينهم، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية واتخاذ إجراءات مطردة، قومية وعالمية، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها .

**المادة ١ :** يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق، وقد وُهبوا عقلاً وضميراً وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء .

**المادة ٢** : لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أية تفرقة بين الرجال والنساء. وفضلا عما تقدم فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي لبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلا أو تحت الوصاية أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود .

**المادة ٣** : لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه .

**المادة ٤** : لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما .

**المادة ٥ :** لا يعرض أي إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة .

**المادة ٦** : لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف بشخصيته القانونية .

**المادة ٧** : كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة عنه دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعا الحق في حماية متساوية ضد أي تميز يخل بهذا الإعلان وضد أي تحريض على تمييز كهذا .

**المادة ١٢** : لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات.

**المادة ١٨** : لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر ومراعاتها سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة .

**المادة ١٩** : لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.

**المادة ٣٠** : ليس في هذا الإعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه. (١)

## الإسلام وحقوق الإنسان

تعد المساواة بين الناس على اختلاف الأجناس والألوان واللغات ، مبدأ أصيلاً في الشريعة الإسلامية ، ولم يكن هذا المبدأ على أهميته وظهوره ، قائمًا في الحضارات القديمة ، كالفارسية أو الرومانية ؛ إذ كان سائدًا تقسيم الناس إلى طبقات اجتماعية ، لكل منها ميزاتها وأفضليتها ، أو على العكس من ذلك ، تبعاً لوضعها الاجتماعي المتدني .

وكانت التفرقة بين البشر في المجتمعات القديمة ، تستند إلى الجنس واللون ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والحرية والعبودية ، وكانت طبقة الحكام ورجال الدين من الطبقات المميزة ، بل إن بعض المجتمعات ، مثل المجتمع الهندي ، كان يعرف طائفة المنبوذين ، وكان محرما على أفراد الطبقة ، أن ينتقلوا منها إلى طبقة أعلى ، حتى ولو كانت ملكاتهم تتيح لهم ذلك .

(١) نقلا عن قسم موقع الأمم المتحدة في إدارة شؤون الإعلام .

وفي العصر الحديث ، رفعت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، شعار المساواة .

وصدر عن الأمم المتحدة الإعلان العام لحقوق الإنسان الذي ذكرنا أهم مبادئه آنفاً

غير أن التجارب العملية ، تعلم الإنسان أن المبادئ والشعارات وحدها لا تكفي ، دون أن يكون هناك ما يحدد المضامين ، ويفتح طريق التطبيق ، ويفرض الجزاء عند المخالفة . وها نحن أُوْلاء نرى ونسمع انتهاكات لحقوق الإنسان في جميع أنحاء المعمورة وبخاصة من الدول التي لا تفتأ تذكر هذه الحقوق وتنادي بها !!

وذلك ما نجده في الشريعة الإسلامية في مبدأ المساواة بين الناس .

فهي تسوية أصلية بحكم الشرع ، ومضمونها محدد ، وأساليب تطبيقها واضحة ، والجزاء عند مخالفتها قائم ، وهو جزاء دنيوي وأخروي .

إن التسوية بين البشر ، تعني التسوية بينهم في حقوق الكيان الإنساني ، الذي يتساوى فيه كل الناس .

أما التسوية الحسابية في الحقوق الفرعية التي تؤدي إلى المساواة بين غير المتماثلين ، فإنها معنى يختلف عن التسوية في الآدمية التي كرمها الله ، والتي تستند إلى مبادئ ثابتة وأصل واضح ، قال الله تعالى :

{ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا }
( النساء : ١ )

فالناس كلهم من نفس واحدة . ويبين الحديث الشريف هذا الأصل في المساواة :

" إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي ، وفاجر شقي ، والناس بنو آدم ، وآدم من تراب ، لينتهين أقوام عن فخرهم برجال أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن "

( أبو داود والترمذي وأحمد )

هذه قاعدة الإسلام الأصلية في المساواة ، كما تحددت في آيات القرآن الكريم ، وبينتها السنة المشرفة .

وبين النبي ﷺ معنى المساواة ، حين شفع وجهاء من القوم ، في إعفاء امرأة شريفة وجب عليها حد السرقة ، حتى لا توقع عليها العقوبة ، فأبى النبي ﷺ ذلك ، ونبه إلى عدم جواز الشفاعة في حدود الله ؛ لأن ذلك يخل بمبدأ المساواة بين الناس ، ويؤدي إلى إيثار ذوي الوجاهة بإعفائهم من العقاب ، مع إقامة الحدود على ضعفاء الناس ، وبين الرسول ﷺ أن ذلك الأمر إذا ساد في مجتمع أدى به إلى الزوال ، فقال: " أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا هَلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا " (متفق عليه )

ويعيب الرسول ﷺ على أحد أصحابه الملازمين له على الحب والتلقي منه ، أنه عيَّر صاحباً له بلونه ، فحين عيَّر أبو ذر الغفاري بلالا بلونه الأسود ، غضب النبيﷺ وقال للصحابي الجليل : " إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ " ( رواه البخاري )

وأقامت الشريعة الإسلامية أصل المساواة في أحكامها ، على النحو الذي يجعل هذا المبدأ وسيلة لرُقِيِّ الإنسان ، وتحصيل مصالح الحياة .

والتعاون والتكامل بين الحاكم والمحكوم من القواعد الأساسية في الإسلام .

ويعلم النبي ﷺ أصحابه ، وهو أفضل الخلق ، مبدأ المساواة في أمثلة متعددة ، منها أنه لما كان يصفُّ أصحابه للقتال ، دفع بعصا صغيرة في يده رجلاً خرج من الصف ، فلما شكا الرجل إليه ، كشف الرسول ﷺ عن بطنه الشريفة ؛ لكي يقتص منه الرجل ، فإذا به يهوي ليقبل جسد النبي ﷺ وكان مبتغاه ومراده أن يمس جسد الرسول قبل أن يستشهد في القتال . (رواه أبو داود )

ولقد تعلم أصحاب النبي ﷺ ذلك ، يقول أبو بكر رضي الله عنه للناس : ( إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوِّموني ) [1]

وهي مساواة لا تخل بحق الطاعة لولي الأمر ، الذي يرعى مصالح من اختاروه حَكَمًا عليهم .

فإذا كان من حق المحكومين التسوية في الحقوق والواجبات ، فإن من حق الحاكم الطاعة له في المنشط والمكره .

وفي الإسلام تسوية بين البشر في الكيان الإنساني ، فالكرامة الإنسانية هي للآدمي، يقول الله تعالى :

{ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } ( الإسراء : ٧٠ )

ومال المعاهد والذمي وسائر المدنيين غير المحاربين لا يحل للمسلم إلا برضاه ، وعرضه مصون في المجتمع الإسلامي .

يقول توماس أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام :

" إن المسيحية نعمت بتسامح ملحوظ في ظل الحكم الإسلامي ، لم تعرفه منذ قرون طويلة " .

ويمكن للذمي أن يعيش في المجتمع الإسلامي آمنا على نفسه وماله وعرضه ، بل ويتمتع بالبر والإحسان ، كما فعل عمر بن الخطاب حين أعطى شيخا من شيوخ أهل الذمة من بيت المال ، لما رأى حاجته ، وعجزه عن الكسب .

وكل ذلك من آداب التسوية بين الناس وقواعدها العامة ، وهي مستمدة من قول الله تعالى : { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ } ( الممتحنة : ٨ )

---

( [1] ) البداية والنهاية للإمام ابن كثير ج ٦ ص ٣٤٠

تلك من أهم صور المساواة التي جاءت في الإسلام أصولها ومفاهيمها ، في قضايا مهمة من قضايا البشر : التفرقة العنصرية بسبب اللون أو الجنس ، وقضية المرأة وحقوقها في المجتمع الإسلامي ، وقضية التسوية بين الحاكم والمحكوم ، والعدل والمساواة في التعامل مع الذميين .

ولم تكن قواعد المساواة تلك ، معروفة في المجتمعات الإنسانية قبل الإسلام .

ولم تصل إلى هذا الكمال في الأمم التي جاءت بعد الإسلام .([1])

## أساس التفاضل بين الناس

تختلف أحوال الناس ، وأوضاعهم ، وتختلف أزمنتهم وأمكنتهم ، ويوجد التنوع في الأجناس والألوان واللغات ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، ويختلف الموقع الاجتماعي والاقتصادي بين الناس ، حينذاك تفرض المجتمعات معايير للتفاضل بين الناس ، إزاء هذا التنوع والاختلاف .

ولا بد من وضع معيار للتفاضل ؛ لأن المساواة المطلقة لا تكون إلا في الكيان الإنساني ، والمشكلة تبدأ عند وضع هذا المعيار ، بحيث لا يخل بمبدأ المساواة في ذاته ، ويجعل التفاضل وسيلة نمو ورقيٍّ ، وليس ذريعة للظلم والتفرقة بين الناس .

وهذا ما جاء في الشرع الإسلامي ، فقد ترك كل المعايير السائدة للتفاضل ، كالقوة والضعف ، والموقع الاجتماعي ، أو الاقتصادي ، أو الطبقة التي ينتمي إليها الإنسان، أو الجنس واللون .

إن معيار التفاضل في الإسلام يستطيع الارتقاء إليه كل البشر ، ولا يقسم الناس إلى طبقات يعلو بعضها بعضا ، وهو معيار يدفع إلى الرقي والسمو بالإنسان .

---

([1]) لمزيد من التفصيل حول المساواة في الإسلام انظر عبد الله بن عبد المحسن التركي " حقوق الإنسان في الإسلام " وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية الفصل الخاص بالمساواة .

إن التقوى معيار الكرامة الإنسانية عند الله عز وجل ، ومع ذلك فهي معيار الصلاح في الدنيا ، وهو معيار حقيقي وعملي ؛ إذ إن صلاح الإنسان في دنياه ، يجعله أفضل لنفسه وللمجتمع الذي يعيش فيه ، من غيره الذي لا يفيد نفسه ولا مجتمعه بشيء .

وقد هدم الدين الإسلامي بهذا المعيار الحقيقي الذي يرتقي بحياة الإنسان والمجتمع، كل المعايير الزائفة ، التي أشار القرآن الكريم إلى الكثير منها .

يقول الله تعالى في الإنكار على أصحاب المعايير الزائفة في التفاضل :

{ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ } ( الشعراء : ١١١ ) .

مما يدل على أنهم لم يؤمنوا ؛ لأن مَن هم أقل منهم قد آمنوا بالرسول ﷺ وقالوا : { أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ } ( البقرة : ١٣ )

ولما طلب وجهاء قريش ومن كانوا يحسبون أنفسهم سادة قومهم ، من النبي ﷺ أن يطرد الفقراء والمساكين وضعاف الناس الذين التفوا حوله وآمنوا به ، كعمار بن ياسر ، وبلال ، بحجة أنهم يريدون أن يستمعوا إلى النبي ﷺ ولكنهم لا يجلسون مجلسا يكون فيه هؤلاء محل الرعاية من الرسول الكريم ، نزل قول الله تعالى :

{ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ } ( الأنعام : ٥٢ ) [1]

لقد جعل الله تعالى التقوى مقياس التفاضل بين البشر جميعا فلا فضل لعربي على أعجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } ( الحجرات : ١٣)

---

[1] ) نفسه .

يقول تعالى مخبرًا للناس أنه خلقهم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء، وجعلهم شعوبًا، وهي أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك .

فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله ومتابعة رسوله ﷺ .

وقوله: { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } أي: إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب. وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ﷺ :

منها قوله ﷺ : " إِنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ " ( رواه مسلم )

وقوله : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفَخْرَ بِالآبَاءِ مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ النَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ خُلِقَ مِنْ تُرَابٍ " (رواه أبو داود والترمذي وحسنه)

ولعلي رضي الله عنه في هذا المعنى وهو مشهور من شعره:

الناسُ من جهة التمثيل أكفاء * أبوهم آدم و الأم حواءُ

نفسٌ كنفسٍ وأرواح مشاكلة * وأعظم خلقت فيهم وأعضاء

فإن يكن لهم من أصلهم حسب * يفاخرون به فالطين و الماء

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم * على الهدى لمن استهدى أدلاء

وَقدْرُ كل امرئ ما كان يحسنه * وللرجال على الأفعال سيماء

والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا، والاتصاف بما أمرك أن تتصف به، والتنزه عما نهاك عنه .

وقال علي بن أبي طالب : التقوى ترك الإصرار عل المعصية ، وترك الاغترار بالطاعة .

وقال إبراهيم بن أدهم : التقوى أن لا يجد الخلق في لسانك عيباً . ولا الملائكة في أفعالك عيباً ولا ملك العرش في سرك عيباً .

وقال الواقدي : التقوى أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق .

ويقال : التقوى أن لا يراك مولاك حيث نهاك .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }( الحجرات : ١٣)

يا أيها الناس . يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً ، المتفرقون شعوباً وقبائل . إنكم من أصل واحد . فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بدداً .

إن الميزان الذي أنزله الله للناس مع الرسل ، ليقوّموا به القيم كلها ، هو { إن أكرمكم عند الله أتقاكم } هذه هي القيمة الوحيدة التي يرجح بها وزن الناس أو يشيل! وهي قيمة سماوية بحتة ، لا علاقة لها بمواضعات الأرض وملابساتها إطلاقاً .[1]

## هل اليهود هم الأتقى ليكونوا هم الأكرم عند الله ؟

لا تزعم اليهودية أن لديها هداية تقدمها للبشر ، فهي ديانة يغلب عليها الطابع العنصري ، وبنو إسرائيل وحدهم دون الناس هم شعب الله المختار كما يزعمون !!

و" الله " في دين اليهود ليس رب العالمين ، ولكنه رب إسرائيل . والآخرة عند اليهود ليست هي ملكوت السماء عند النصارى ، ولا جنة الخلد عند المسلمين ، إنما هي مُلك إسرائيل .

والعهد القديم " كتاب اليهود المقدس الذي يضم أسفار التوراة وملحقاتها يدور جلّه حول تاريخ إسرائيل ، وأحلام إسرائيل .

---

(1) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج٧ ص ٤٥٣

التوحيد الذي دعا إليه موسى عليه السلام ضاع في هذا الكتاب الذي شوه صورة الألوهية ، وأضفى على الإله من نقائص البشر ، من الجهل والخوف والحسد ، والضعف ، يلحظه كل قارئ للتوراة .

والأنبياء الذين جعلهم الله هُداة ومعلمين ، لُوِّثت سيرتهم وأُلصقت بهم التهم ، في هذا الكتاب ، فلم يعودوا ليصلحوا أُسوة للناس .

والشريعة فيه تُحل لبني إسرائيل ما تُحرمه على غيرهم ، فالربا حرام إذا تعامل اليهودي مع مثله ، أما مع غيره من الناس فهو حلال زلال .

أما تعاليم " التلمود " فتجعل من اليهود " عصابة " تستحل دماء البشر ، أموالهم وحرماتهم ، باسم الدين ، فكل من عداهم من الأمم يجب أن يكونوا عبيداً لهم ، أن يكون لهم السيادة على العالم ، وكل من دونهم أحط من البهائم .على أن اليهود لو كانوا يملكون رسالة لهداية البشر ، لكانوا أبعد الناس عن الصلاحية لحملها ، فهم - بأنانيتهم وعزلتهم ، وحقدهم وطمعهم وشرهم - لا يصلحون لحمل رسالة عالمية .

وهم - بما نُشِر عنهم في بروتوكولات حكماء صهيون ، وما ظهر على أيديهم في فلسطين ولبنان - أعداء البشرية لا منقذوها !

وهم - بتاريخهم الدموي مع أنبياء الله ورسله زكريا ويحيى والمسيح ومحمد عليهم الصلاة والسلام - لا يصلحون لحمل رسالة .

وهم - بتاريخهم في إيقاد الفتن ، وتمزيق الجماعات ، وبث الأفكار الهدامة ، ونشر الفلسفات ، والمذاهب الانحلالية - لا يصلحون للإنقاذ ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فإن فاقد الشيء لا يُعطيه ! [1]

---

([1]) د. يوسف القرضاوي " الإسلام حضارة الغد " نقلا عن الشبكة الإسلامية . ١/ ١ / ٢٠٠٢

## هل المسلمون شعب الله المختار ؟

إذا كان المسلون الأوائل لم يمنعهم اعتزازهم بالإسلام أن يخالطوا الشعوب الأخرى ويتعلموا منهم ما ينقصهم من شئون الدنيا والعلم فإن المسلمين في عصور التخلف والانحطاط سيطر علي كثير منهم الاستعلاء الديني العنصري فتوهموا أنه بسبب كونهم مسلمين – وإن كان بالاسم فقط – أصبحوا خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم هم المؤمنون حقاً ، وأن بلادهم بلاد الإسلام وما عداها فبلاد الكفر والشرك !! وأن الخير كل الخير في اعتزال هؤلاء الكفرة وعدم الاختلاط بهم والاستفادة من حضارتهم ، وكأنهم شعب الله المختار ، ميزهم بأفضل دين ، وفضلهم بأعظم نبي ، وخصهم وحدهم بشفاعته يوم القيامة ، فلم العمل والسعي وقد فضلهم الله على العالمين ليس في الدنيا فقط بل وفي الآخرة أيضًا وهكذا استقرَّ هذا الفهم المغلوط لدين الله الحنيف في عصور الضعف والانحطاط .

يقول تعالى في اليهود وفي كل من زكى نفسه :

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا } ( النساء : ٤٩، ٥٠ )

إن دين الله منهج حياة . وطاعة الله هي تحكيم هذا المنهج في الحياة . والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه ، ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود ، الذين يعجب الله من حالهم ، ويدمغهم بإثم الافتراء عليه في تزكيتهم لأنفسهم ! فالقاعدة هي القاعدة والحال هي الحال . وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة ! " [1]

إن فكرة تزكية النفس واحتقار الأغيار مرفوضة من كل من قال بها يهوداً كانوا أو مسيحيين أو مسلمين أو من أي ملة أو دين .

***

( [1] ) سيد قطب " في ظلال القرآن الكريم " ج٢ ص ١٥١